رحلة ابن بطوطه

تلخيص وتعليق

الأستاذ محمد اسماعيل ابراهيم

المدرس بمدرسة الظاهر الأميرية

ابن بطوطه مولده ونسبه :

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم الملقب بشمس الدين ابن بطوطه الرحالة الشهير ، الذى طاف الأرض معتبرا وطوى الأمصار مختبرا

ولد بطنجة الواقعة على مياه بوغاز جبل طارق ببلاد المغرب سنة ٧٠٣ هجرية الموافقة سنة ١٣٠٤ ميلادية

ويعتبر ابن بطوطه أحد من أنجبتهم بلاد المغرب من علماء وأدباء وقواد وهو معاصر لابن خلدون صاحب القدم الراسخة فى علوم الاجتماع . وترجع شهرة ابن بطوطه إلى رحلته الطويلة التى جاس خلالها الامبراطورية العربية وسار الى أبعد حدودها شرقا فى بلاد الصين . وقد دون أخبار هذه الرحلة فى كتابه المسمى « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار »

أهمية كتاب تحفة النظار :

لقد كان لكتاب ابن بطوطه الأثر البعيد والفضل الأكبر ، فى كشف الستار عن أخبار أقوام عاشوا بالدنيا القديمة ، ولم تتيسر لهم أسباب التقارب والتعارف والكتاب مرجع تاريخى لنواح اجتماعيه فى مختلف الأقطار التى زارها ومرآة جلية لهذا العصر ، كما أنه أفاد من الناحية الجغرافية كثيرا . ومما يدل على أهمية الكتاب ونفاسته ، أنه ترجم إلى اللغات الأجنبية لأن واضعه ثقة يحدثك بأمانة عما عاينه من حياة الناس وآدابهم وعلومهم وصناعاتهم والعادات المتفشية فيهم ينشر لك الكتاب هذه العلومات الكثيرة الطلية فى أسلوب روائى ونكات

ظريفة تدل على لباقة ابن بطوطة وخفة روحه وهو فى هذه الصور التاريخية الرائعة التى رسمها عن وصف المكان وأهلها ، يعطينا أوضح فكرة عن هذه الأيام الخالية التى كان ظلام القرون الوسطى سادلا أستاره الكثيفة عليها لصعوبة المواصلات وندرة الرحالين ، الذين يزجون بأنفسهم فى مجاهل الأرض المحفوفة بالمهالك . وإن كانت هناك طائفة تقضى عليها أعمالها أن تتنقل فى أنحاء هذه الأقطار التى تكلم عنها ابن بطوطة ، فهم التجار الذين قاموا بقوافلهم يقطعون الفيافى ويهبطون فى الأمصار . ولكنهم كانوا لا يهتمون بالتعرف إلى الحياة الفكرية أو العلمية أو حالة الطبقات التى لا تحتك بهم فى المعاملة . وذلك لأن ميلهم وفرقتهم لا يسمحان لهم بذلك . هذا فضلا عن أنهم لم يفكروا فى كتابه شئ يبقى على مر الأيام . بل كانوا يذيعون معلوماتهم بين عشيرتهم شفويا ، وهؤلاء يبالغون فى تصويرها حتى يخرجونها عن حقيقتها

لذا فأن كتاب تحفة النظار فى جملته ، يوضح للباحثين باجلى بيان ، الثقافة العامة الشائعة يومئذ . تلك الثقافة التى كان سداها ولحمتها الدين وآدابه وأحكامه ورجاله

فى مواقفك الكثيرة مع ابن بطوطه فى رحلته ، تراه لا يتحدث إليك بأفاضة وإسهاب إلا عن العلماء والأولياء ومناقبهم ومقاماتهم العالية وماجرى له معهم من كرامات ، ومانالة على أيديهم من بركات . ولا عجب فأن الدين فى هذا العصر كان ظاهر السلطان ، وله من الحكام والخاصة أعوان أى اعوان

نعم كان الدين ملء الأسماع والأبصار والقلوب ، فلا غرو أن يكون ابن بطوطة على دين ملوكه . فهو يملأ سيرة رحلته بذكر العباد والزهاد ، الذين حظى بشرف المثول بين أيديهم أو فى أضرحتهم فى القرى والأمصار ، وليس أدل على أن جوانحه كانت منطوية على شعلة متقدة من الصلاح ، من أنه وهو فى شرخ الصبا وريعان الشباب يترك أهله وعشيرته نازحا بنفسه عن وطنه وحيدا يقتحم الأخطار فى زمن لم تكن فيه غير الدواب والسير على الأقدام وسيلة للانتقال فى تلك المفاوز الواسعة المهلكة ، التى اجتازها لأداء فريضة الحج . واستمع إليه إذ يقول

« كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة أقبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب يكون في جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة بامن في تلك الحيازم »

فتخيل هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، كيف يخاطر بحياته الغاليه وتتملكه عاطفة الدين الشريفة لأداء فريضة الحج في رحلة بعيدة الشقة ، لم يتزود لها إلا بإيمانه الصحيح ، ثم يقضي خمسة وعشرين عاما يجول في القفار والأمصار وهو أينما ذهب يقابل بالترحاب ويشيع بالأجلال والأعجاب مما يدل على سمو شخصيته وعلو همته . وإلى القراء ملخص وتعليق على رحلات هذا السائح الظريف ، وماشاهد وعاين من عجائب الأسفار وغرائب الامصار

من طنجه إلى الاسكندرية

خرج ابن بطوطه من طنجة في أيام الأمير سعيد بن أمير المؤمنين أبي يوسف ابن عبد الحق . وترى في سياق الرحلة كثيرا من أسماء هؤلاء الحكام من عمال الموحدين . وقد لصق ابن بطوطة بهم الألقاب الضخمة الفخمة من ناصر الدين إلى حامي حمى الأسلام والى غير ذلك مما لا حصر له ، مما سنضرب عنه صفحا ولكننا أمام هذه الألقاب الدينية الكبيرة نشير هنا إلى ما كان لسلطة الحكام والولاة المحلية من أثر ظاهر في بيئتهم ، لأن نظام الحكومة في هذه البلاد الأسلامية كان على نمط الحكم العربي الذي تتمثل فيه السلطتان الدينية والزمنية إذ لم تكن هناك حكومات بمعناها الحاضر ملكية وجمهورية واستبدادية وما يتبع ذلك من نظم وتقاسيم إدارية الخ

. . . ووصل إلى تلمسان فالجزائر حيث يقص عليك أول ظلم رآه من عمال الموحدين وهو اغتصابه مالا ، كان أوصى به أحد التجار الذين ماتوا معه في الطريق لرجل من القافلة يوصله لأهله ، ولعل حداثة ابن بطوطة وقتئذ وطهارة

قلبه هى التى جعلته يستعظم هذا الجرم الذى كان و لا يزال من شيم النفوس فى كل مكان وزمان

وقد أصيب ابن بطوطة فى الطريق بحمى ، فأشارعليه رفاقه أن يمكث فى بلدة (بجـايه) حتى يبرأ ، ولـكنه أبى مستعذبا أن يموت فى سبيل طاعة الله لأداء فريضة الحج ، وظل مسافرا حتى وصل الى قسنطينه فتلقاهم حاكم المدينة بالبشر وطلب إليه أن يخلع ملابسه لتغسل لأنها كانت قد اتسخت وكان بعضها خلقا فردت إليه ملابسه نظيفة ومعها أخرى جديدة ، وصر له فى أحد أطرافها دينار من الذهب ، فتقبل هذا الفضل مغتبطا وهو يعتقد أن هذا من نعم الله عليه ، وسار إلى مدينة بونه وأقام بها أياما ، وبعد ذلك انقطع أكثر من كان معه خوفا من الطريق ، إلا أنه تجرد للسفر مع فئة قليلة وأجهد نفسه فى المسير حتى أصابته حمى شديدة الوطأه هزل بسببها إلى درجة أنه كان يشـــد نفسه بعمامته فوق السرج لئلا يقع ، حتى وصل إلى تونس ، وهناك أقبل بعض الناس على من كانوا معه بالسؤال والسلام والأيناس ،وهو لا يسلم عليه أحد لأنهم لا يعرفونه ، فذرفت عيناه وحشة وألما ، وفى هذا دليل على إنسانيته ورقة قلبه

ولم يصف لنا ابن بطوطة هذه المدينة العظيمة إلا بوجود علمـاء أجلاء يجتمع بعضهم بالأهالى عقب صلاة الجمعة بجامع الزيتونة العظيم للوعظ والأرشاد والافتاء ، ولما كان العيد قد أظله هناك فهو يحدثك عن صورة تاريخية بديعة تلك هى احتفاء الحكام بالأعياد وخروجهم راكبين مطاياهم وحولهم الأهل وخواص المملكة ،مشاة على أقدامهم فى ترتيب عجيب ، فأين هذا المظهر الآن ؟ لقد قضت سنة التطور أن تندثر هذه الصور البديعة الرائعة وتحل محلها تقاليد أخرى هى الاحتفاء بالأعياد على صورة أخرى من اللهو والمرح أو نسيانها لأن اعباء الحياة وتكاليفها جعلت كثيرا من الناس لا يقيمون للأعياد وزنا

خرج بعد ذلك من تونس فى ركب ذاهب إلى الحجاز وكان قـــد تعين قاضيا ، ويدل هذا على ثقافة ابن بطوطة ، وسار الركب حتى بلدة سوسة ثم صفاقس

حيث عقد فيها على بنت أحد التونسيين ، ولم يشر إلى بلدة صفاقس هذه بكلمة من عنده ، بل تركنا بين قولين متناقضين لشاعرين أحدهما يمدح صفاقس قائلا :

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
محمى القصير إلى الخليج فقصرها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين تزوره أهـــلا وسهلا
وكأنه والبـــحر يحـــسر تارة عنه ويمـــلا
صب يريد زيارة فأذا رأى الرقباء ولى

بينا الآخر يذم قائلا :

صفاقس لاصفا عيش لساكنها ولاسقى أرضها غيث إذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها عادى بها العاديين :الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا

وقول الشاعرين يعبر عن نفسية كل إنسان وعما يلاقيه من خير أوشر فى أى مكان ينزح اليه وما يصادفه فيه من نجاح أوفشل وتوفيق أوسوء حظ ولهذا قيل :

وكل مكان ينبت العزطيب

ثم وصل إلى قابس ومنها إلى طرابلس حيث وقعت مشاجرة بينه وبين صهره ، ففارق ابنته من أجله . وهذا من ظلم الدهر أن تؤخذ الزوجة بجريرة الأقارب ومع مضى القرون الكثيرة لازلنا نرى ونسمع هذه المشاكل التى لم يفد أى علاج فى تلطيف حرمتها مع كثرة ما كتب وما اقـــترح لتهذيب الأخلاق وتثقيف العقول

ثم تزوج بعد ذلك بنتا لبعض طلبة العلم . هكذا قرأت فلا تدهش لأن عهدنا بطلاب الأزهر ليس ببعيد ، حيث كان بعضهم يناهز الأربعين أو الخمسين لاصقا بالأزهر فى حياة خشنة عسرة ، ولايخرج الواحد منه ليجنى ثمار ماحصل من علم إلا عند مايقارب الشيخوخة . ثم وصل بعد ذلك إلى الأسكندرية (يتبع)